طرابلس والأزهر

د. نقولا زيادة

كان الراغبون في متابعة دراساتهم العليا من اللبنانيين في القرن التاسع عشر يجدون أنفسهم موزعين بحسب التركيبة الطائفية التعليمية التي كانت في البلاد. ومن ثم فإن الاختيارات أمامهم لم تكن واسعة ولا متنوعة. ويمكن إجمال هذه الخيارات أو المجالات فيما يلي:

١ ـ كان في بلاد الشام نفسها ثلاثة معاهد تقدم دراسات عليا بالمعنى المحدود وهي: مدرسة عين ورقة التي أنشئت سنة ١٧٨٩ على غرار المدرسة المارونية في رومة (من أواخر القرن السادس عشر). وهذه المدرسة كانت الغاية منها إعداد رجال الدين الموارنة للإشراف على الرعية (في لبنان وحلب وقبرص). ومن ثم فقد كانت برامجها دينية لاهوتية فلسفية أصلاً. إلا أنه كانت لها عناية باللغات. فقد كانت اللاتينية والسريانية والإيطالية موضع عناية. أما لغة التعليم فيها فالعربية. وقبل إنشاء هذه المدرسة كان الطلاب يرسلون إلى المدرسة المارونية برومة، وظل بعض خريجي عين ورقة يذهبون إلى رومة إلى أن أقفلت هذه في العقود الأولى من القرن التاسع عشر.

والمعهدان الآخران هما دار المعلمين الروسية (في الناصرة بفلسطين) ودار المعلمات الروسية (في بيت جالا بفلسطين). هذان المعهدان كانا وقفا على أبناء وبنات الطائفة الأرثوذكسية، من جميع أنحاء بلاد الشام. وقد كان الطلاب والطالبات يقضون في المعهد ست سنوات يعلمون فيها اللغة العربية واللغة الروسية والرياضيات والعلوم وأساليب التعليم. فقد كانت الغاية من هذين المعهدين إعداد المعلمين والمعلمات للمدارس التي فتحتها روسيا القيصرية في بلاد الشام. وقد يختار من هؤلاء الطلبة الممتازون فيرسلون إلى روسيا لاتمام دراساتهم العالية.

٢ ـ منذ سنة ١٨٦٦ أصبح هناك معهد للدراسات العليا في بيروت من إنشاء الأميركان هو «الكلية السورية الانجيلية» (الجامعة الأميركية اليوم) ومنذ سنة ١٨٧٥ قامت كلية القديس يوسف (جامعة القديس يوسف فيما بعد) كمعهد للدراسات العليا. وهذان المعهدان كانا يتيحان لعدد من الطلاب أن يتخصصوا في فروع المعرفة كدراسة الطب. ومع أن هذين المعهدين لم تكن لهما صفة مذهبية خاصة، فقد كان أكثر الطلاب فيهما من الطوائف المسيحية.

٣ ـ كان الطلاب من الطائفة الشيعية يتجهون نحو الشرق ـ نحو النجف الأشرف وقم وغيرهما من مراكز الدراسة والبحث. فالمدارس الشيعية المتخصصة التي كان لبنان يضم عدداً لا يستهان به منها، ضعف شأنها منذ القرن السادس عشر، وأصبح التخصص موجوداً في المعاهد الشرقية.

٤ ـ أثناء الحكم المصري في بلاد الشام منح عدد من الطلاب اللبنانيين (لعل العدد كان ستة) حق الذهاب إلى مدرسة القصر العيني في القاهرة لدراسة الطب. وقد استمر العمل بهذا حتى بعد انحسار الحكم المصري عن البلاد.

٥ ـ لسنا هنا في معرض التحدث عن الأزهر كمؤسسة علمية إسلامية، إذ ليس ثمة من لا يعرف ذلك. وكل ما نريد أن نقوله هو أن الطلاب السنيين في لبنان، على ما كانت عليه الحال في البلاد المجاورة أيضاً، كانوا ييممون شطر الأزهر تحقيقاً لآمالهم في الدراسات العليا. والواقع أن الدراسة في الأزهر كانت تحمل معها، عندما يعود الطالب ومعه شهادة العالمية، وضعاً اجتماعياً مرموقاً.

٦ ـ جمعنا في هذه الدراسة التمهيدية أسماء أربعة وعشرين شخصاً ممن يمموا شطر الأزهر للدراسة. ولسنا ندعي أننا ألممنا بالأسماء جميعها، فنحن واثقون من أن هناك عدداً أكبر من ذلك. وأننا نأمل أن يتاح لنا متابعة هذا البحث توسيعاً وتعميقاً. فالواقع أننا لم نزد عن أن مسحنا السطح فقط. والذي لاحظناه أن عدد الطرابلسيين كان أكبر من عدد البيروتيين أو الصيداويين أو غيرهم مثلاً. ويخيل إلينا أن بيروت كانت منذ العقد الرابع من القرن الماضي قد أصبحت تيسر للشباب مجالات العمل في التجارة والوظائف الحكومية وفي المؤسسات الأجنبية والصحافة والطباعة، مما كان يغريهم بالالتحاق بها. وهذا ينطبق على سكان بيروت بعامة، لا على السنيين بوجه خاص. أما طرابلس فقد انصرف الكثير من شبابها إلى العلم واتجهوا نحو الأزهر.

ونحسب أنه لما بدأ أبناء أسر معينة من طرابلس بالذهاب إلى الأزهر طلباً للعلم، أصبح الأمر تقليداً اجتماعياً لتلك الأسر بالذات وأسر أخرى رأت في ذلك منزلة اجتماعية حرية بالإهتمام.

٧ ـ ونود أن نذكر هنا أن بيروت كانت تتيح المجال الواسع للذين يتخرجون من الأزهر بعد عودتهم للعمل في المدارس المختلفة والصحافة. ومن هنا اتيح لهؤلاء أن تكون آثارهم بعد عودتهم منوعة. أما الذين عادوا إلى طرابلس فقد اقتصر عملهم على التدريس في واحد من مساجد طرابلس أو إحدى مدارسها، وكانت كتاباتهم مقصورة على موضوعات دينية في الغالب. وثمة فئة من خريجي الأزهر ممن تولى مناصب قضائية في نواح مختلفة من بلاد الدولة العثمانية.

اللبنانيون الذين تعلموا في الأزهر

ها نحن نضع بين أيدي القراء ثبتاً بأسماء أولئك الذين عثرنا عليهم، ونعود بعد ذلك فنتحدث عنهم بقدر ما تمكنا من العثور على أخبارهم. ومما يلفت النظر أن الأكثرية الساحقة من هؤلاء كانوا من مدينة طرابلس.

١ ـ يوسف بن عمر بن عبدالله الشهير بالذوق (طرابلس)

ولد ١١٢٥هـ تو؟

ولد عام ١٧١٣م

(هو أول من عثرنا على اسمه بين من تعلموا في الأزهر، وهو ليس من أهل القرن التاسع عشر).

٢ ـ الشيخ عبد القادر (الأول) الرافعي (طرابلس)

ولد؟ هـ توفي ١٢٣٠هـ

ولد؟ م توفي ١٨١٤م

٣ ـ مصطفى بن عبد القادر (الأول) الرافعي (طرابلس)

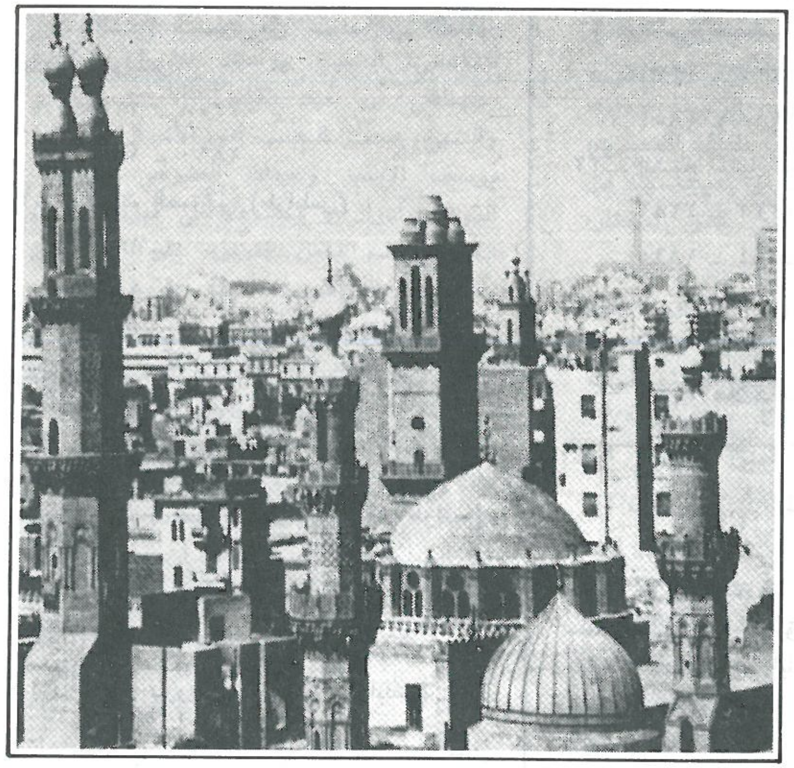

□ جامع الأزهر الشريف في القاهرة.

كان حياً في العقود الوسطى من القرن التاسع عشر.

٤ ـ عبد الرحمن القباني الأزهري (بيروت)

كان حياً في العقود الوسطى من القرن التاسع عشر.

٥ ـ الشيخ نجيب الزعبي الحيلاني الطرابلسي

لم نقف على تاريخ له.

٦ ـ اسماعيل بن أحمد الحافظ (طرابلس)

ولد ١١٩٨ تو ١٢٨٨هـ

ولد ١٧٨٤ توفي ١٨٧١م

٧ ـ الشيخ محمد الجسر أبو الأحوال (طرابلس)

ولد ١٢٠٧ تو ١٢٦١هـ

ولد ١٧٩٨ تو ١٨٤٥م

٨ ـ الشيخ خليل بن ابراهيم الثمين (طرابلس)

١٢١٣ ـ ١٢٩٣

١٧٩٩ ـ ١٨٧٦

٩ ـ الشيخ عبد القادر بن مصطفى بن عبد الرحيم نجا (طرابلس)

١٢٢٢ ـ ١٢٨٦

١٨٠٧ ـ ١٨٦٩

١٠ ـ الشيخ شمس الدين محمد بن ابراهيم القاوقجي (طرابلس)

١٢٢٤ ـ ١٣٠٥

١٨٠٩ ـ ١٨٨٧

١١ ـ الشيخ يوسف الأسير (صيدا)

١٢٣٠ (وقيل ٣٢) ـ ١٣٠٧

١٨١٥ ـ ١٨٨٩

١٢ ـ الشيخ محمود بن محمد عبد الدائم نشابة (طرابلس)

١٢٢٨ ـ ١٣٠٨

١٨١٣ ـ ١٨٩٠

١٣ ـ عبدالله الصوفي (طرابلس)

١٢٤٣ ـ؟

١٨٢٧ ـ؟

١٣ أ ـ الشيخ حسين بن محمد منقارة (طرابلس)

(تقدير) ١٢٤٠ ـ ١٣٢٠

١٨٢٤ ـ ١٩٠٢

١٤ ـ الشيخ عبد القادر (الثاني) الرافعي (طرابلس)

١٢٤٨ ـ ١٣٣٣

١٨٣٢ ـ ١٩٠٥

١٥ ـ الشيخ درويش التدمري (طرابلس)

١٣٥٢ ـ؟

١٨٣٦ ـ؟

١٦ ـ الشيخ حسين بن محمد بن الحاج مصطفى الجسر (طرابلس)

١٢٦١ ـ ١٣٢٧

١٨٤٥ ـ ١٩٠٩

١٧ ـ الشيخ نجيب بن محمد بن أحمد بن عبد القادر الحامدي (طرابلس)

١٢٦٢ ـ ١٣٢٩؟

١٨٤٥ ـ ١٩١١؟

١٨ ـ الشيخ أحمد بن عمر المحمصاني (بيروت)

١٩ ـ الشيخ أحمد عباس الأزهري (بيروت)

١٢٧٠ ـ ١٣٤٥

١٨٥٣ ـ ١٩٢٧

٢٠ ـ الشيخ عبد الحميد بن سعيد بن أحمد عبد القادر (الأول) الرافعي (طرابلس)

١٢٧١ ـ ١٣٢٥

١٨٥٤ ـ ١٩٠٧

٢١ ـ الشيخ محمد كامل الرافعي (طرابلس)

١٢٧١ ـ ١٣٣٧

١٨٥٤ ـ ١٩١٨

٢٢ ـ الشيخ خليل صادق (طرابلس)

١٢٨٢ ـ ١٣٣٣؟

١٨٦٥ ـ ١٩١٤؟

٢٣ ـ عبد الغني البارودي (بيروت)

ملاحظات عامة

١ ـ الشيخ عبد القادر (الأول) الرافعي ـ

هو أول من تلقب بالرافعي من الأسرة. في مصر لازم الشيخ محمود الكردي، ويبدو أنه سلك على يديه طريق الخلوتية. وبعد وفاة شيخه عاد إلى طرابلس ودرَّس في الجامع المنصوري الكبير، إلا أنه كان يتعاطى التجارة إلى جانب عمله التدريسي. له شعر رائق وأكثره صوفي. لم تعرف له مؤلفات. لكنه، على طريقة كثيرين من معاصريه، شطّر البردة ووضع مقامة في المفاخرة بين حمص وحماة (عبدالله حبيب نوفل، **كتاب تراجم علماء طرابلس وأدبائها**، طرابلس، ١٩٢٩ ص٤٠ ـ ٤٤).

٢ ـ ثمة اثنان من آل الرافعي ولدا في طرابلس ولكنهما، بعد أن تخرجا من الأزهر لم يعودا إلى بلدهما أو حتى لبنان، بل سارا في طريقين مختلفين عن الآخرين.

(أ) الشيخ عبد القادر (الثاني) الرافعي: بعد أن تلقى مبادىء العلوم في طرابلس سافر إلى مصر وقرأ في الأزهر الشريف. فكان من شيوخه فيه ابراهيم الباجوري وابراهيم السقا ومحمد الأشموني. وقد أجيز في أعماله العلمية وتولى التدريس في الأزهر وهو في سن السابعة والعشرين. وقد كان من شيوخ الحنفية الكبار، فاكتظت حلقته بالمطالبين. وقد عين فيما بعد شيخاً لرواق الشام في الأزهر، ثم مفتياً لديون الأوقاف ثم عضواً في مجلس الأحكام. ولما توفي، الشيخ محمد عبده، وكان مفتي الديار المصرية، وخلت الوظيفة بوفاته، عين الشيخ عبد القادر مفتياً للديار المصرية، لكنه توفي في اليوم الثالث من تعيينه. وله من الآثار المطبوعة تقرير على الدر المختار، وتقرير على الاشباه والنظائر.

(نوفل)، ص٨٨ ـ ٩١؛ سركيس **معجم المطبوعات**، عمود ٩٢٤؛ الزركلي الاعلام ج٤ ص١٧٠ ـ ١٧١؛ مجلة الضياء الجزء الرابع ص٣٧٠ ـ ٣٧١؛ مجلة المنار ج٨ ص٧٥٩ ـ ٧٦٠؛ كحالة **معجم المؤلفين العرب**، ج٥ ص٣٠٦).

(ب) الشيخ عبد الحميد الرافعي: على عادة أهل أي مدينة درس الشيخ عبد الحميد في طرابلس ثم انتقل إلى الأزهر وبعد إجازته في الأزهر انتقل إلى استانبول. وهناك، على ما يقول نوفل، دخل مكتب القضاة وحاز من المكتب المذكور الشهادة الممتازة. وعندما اعجب به شيخ الإسلام، وعين على أثر ذلك لنيابة لواء حماة، وهو منصب كان من المألوف أن يصل إليه الشخص بعد أن يتولى نيابة قضاء. وانتقل بعد ذلك إلى اللاذقية فالقدس الشريف (الممتازة) فولاية البصرة فولاية المدينة المنورة فولاية حلب وأخيراً نيابة ولاية أزمير. وقد توفي في هذه المدينة. ولعلّ تنقله المستمر واشتغاله بالقضاء لم يتيحا له الوقت للعناية بالتأليف. ولكن ليس من شك في أن أحكامه القضائية كانت ذات قيمة (نوفل، ص٢١٠ ـ ٢١١).

٣ ـ وهناك طرابلسي آخر، هو الشيخ حسن ابن الحاج محمد منقارة، الذي ظل في مصر بعد دراسته في الأزهر. فقد درَّس فيه وأصبح شيخاً لرواق الشوام، وقد كان في وقت من الأوقات مفتي الأوقاف المصرية، وقد تجاوز الثمانين من العمر (نوفل، ص٩٥ ـ ٩٦).

٤ ـ ثمة عدد من الذين تعلموا في الأزهر يمّموا شطر عاصمة الدولة بعد ذلك، فمنهم بالإضافة إلى الشيخ عبد الحميد الرافعي القاضي، الشيخ يوسف الذوق والشيخ مصطفى بن عبد القادر (الأول) الرافعي والشيخ محمد الجسر أبو الأحوال والشيخ يوسف الأسير وعبدالله الصوفي. ويوسف الذوق أرادوا أن يحملوه على قبول منصب القضاء فلم يقبل (نوفل، ص٣٣). وكان مصطفى الرافعي صديقاً لشيخ الإسلام عارف حكمت، وقد رفض منصب القضاء لما عرف أنه سيأخذ الرسوم من أصحاب الدعاوي (نوفل، ص٤٥). وقد تزوج في الاستانة (نوفل، ص٤٦)، كما أنه عمل على تدريس العلم في يافا (نوفل، ص٤٦). وكان يوسف الأسير، أثناء إقامته في عاصمة الدولة، أستاذاً للعربية في دار المعلمين الكبرى (نحسب أن المقصود هي دار الفنون ـ ن.ز.). كما عمل مصححاً في نظارة المعارف (جرجي زيدان، **أشهر مشاهير الشرق** ج٣ (ط٣) القاهرة، ١٩٢٢، ص١٦٤). ويعرف عنه أنه حرر في الجوائب، التي كان ينشرها أحمد فارس الشدياق في استانبول. وقد زار عبدالله الصوفي في الاستانة. وبعد توليه مناصب مختلفة عاد إلى استانبول وتوفي فيها ودفن في تربة أبي أيوب الأنصاري (نوفل، ص٢٦٩). أما المناصب التي تولاها فهي قاضي نابلس وعكا وصنعاء ثم عين رئيساً لمحكمة التمييز في اليمن، وقد اتهم بتحريض أهل اليمن على الثورة إلا أنه بُرِّىء من التهمة (نوفل، ٢٦٨). وبعدها عين رئيساً لمحكمة الاستئناف بحلب ثم في الشام (نوفل، ٢٦٩).

٥ ـ أكثر الطرابلسيين الذين ذهبوا إلى الأزهر للدراسة عادوا إلى طرابلس وعملوا هناك في التعليم. وكان الجامع المنصوري الكبير المكان الأول الذي عملوا فيه. لكن البعض درّس في جامع البرطاسي (خليل الثمين ـ نوفل، ص٢٥٨). والشيخ اسماعيل الحافظ ألقى دروسه في المدرسة الخاتونية (نوفل، ص٢٥٥) مقتصراً في هذه على الدروس الأدبية والآلية أي اللغوية، أما

التفسير والحديث فكان يلقي دروسهما في الجامع الكبير المنصوري (المكان نفسه). والشيخ حسين الجسر انشئت له، بناء على طلبه، المدرسة الوطنية التي كان هو مديرها وكانت تدرّس فيها بالإضافة إلى الدروس الدينية بعض الرياضيات والطبيعيات على الطريقة الأروبية واللغتان التركية والفرنسية (رشيد رضا، المنار، ج٢١، ص١٦١) وقد دخل السيد رشيد رضا هذه المدرسة سنة ١٢٩٩ أو ١٣٠٠، ولكن عمر المدرسة لم يطل (المكان نفسه). وقد درّس الشيخ حسين الجسر في المدرسة الرجبية وفي داره (المكان نفسه).

٦ ـ بين الذين ذكرنا أسماءهم من الطرابلسيين فئة وضعوا كتباً كانت، ولا شك، وثيقة الارتباط بالدروس التي كانوا يلقونها. وها نحن نضع هنا بين أيدي القراء ثبتا ـ موقتا ـ بما وصلت إليه يدنا من مؤلفات هؤلاء النفر:

(أ) الشيخ اسماعيل بن أحمد الحافظ (راجع الزركلي، الاعلام، ج١، ص٣٠٤؛ كحالة، معجم المؤلفين، ج٢ ص٢٥٨؛ نوفل، ص٢٥٤ ـ ٢٥٧) كان يتكسب بالفتوى وبعمل المسائل الفرضية والتوثيقات الشرعية. له:

١ ـ حواشٍ وتعاليق على شرح الدر المختار في فروع الفقه الحنفي.

٢ ـ رسالة في علم الفرائض.

(ب) الشيخ خليل الثمين (راجع نوفل، ص٢٥٨ ـ ٢٥٩؛ كحالة معجم المؤلفين ج٤ ص١٠٩).

١ ـ ارجوزة في علم الفرائض.

٢ ـ السراج الوهاج لإيضاح ما يلزم الحاج.

٣ ـ الرحلة الحجازية.

٤ ـ تخميس البردة.

٥ ـ شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة.

(ج) الشيخ عبد القادر نجا (راجع نوفل، ص٢٥٩ ـ ٣٦١؛ كحالة، ج٥ ص٣٠٥).

روضة الأنوار وجامع الأسرار في فضل التعمير في السن والأذكار (وصفه نوفل بأنه كتاب نافع يبلغ عدد صفحاته الألف جمع من كل علم وفن طرفة أو فائدة ـ نوفل، ص٢٦٠).

(د) الشيخ شمس الدين القاوقجي (راجع نوفل، ص٥٨ ـ ٦٠؛ كحالة، ج٨ ص٢١٢).

١ ـ ربيع الجنان في تفسير القرآن.

٢ ـ الذهب الابريز على المعجم الوجيز.

٣ ـ معدن اللآلي في الأسانيد العوالي.

٤ ـ تسهيل المسالك مختصر موطأ مالك.

٥ ـ اللؤلؤ المرصوع في الحديث الموضوع.

٦ ـ المنتقى الأزهر على ملتقى الأبحر.

٧ ـ المقاصد السنية في آداب الصوفية.

٨ ـ تحفة الملوك في السير والسلوك.

٩ ـ البدر المنير على حزب الشاذلي الكبير.

(هـ) الشيخ عبد القادر (الثاني) الرافعي (راجع نوفل ص٨٨ ـ ٩١؛ سركيس، معجم المطبوعات، عمود ٩٢٤؛ الزركلي، الاعلام، ج٤ ص١٧٠ ـ ١٧١؛ مجلة الضياء، ج٨ ص٣٧٠ ـ ٣٧١؛ مجلة المنار، ج٨ ص٧٥٩ ـ ٧٦٠؛ كحالة، ج٥ ص٣٠٦).

١ ـ تقرير على الدر المختار.

٢ ـ تقرير على الاشباه والنظائر للحموي.

(و) الشيخ محمود نشابه (راجع نوفل، ص٩٤ ـ ٩٥؛ الزركلي، الاعلام، ج٨ ص٦٤؛ كحالة، ج ١٢ ص١٩٦؛ المنار ج٢١ ص١٥٥ ـ ١٥٧).

١ ـ العقود الدرية على الأسئلة النحوية.

٢ ـ الدر الثمين في أحكام تجويد الكتاب المبين.

٣ ـ شرح البيقونية في مصطلح الحديث.

٤ ـ حاشية على همزية البوصيري.

٥ ـ تعليق على شرح الضناوي في المنطق.

(ز) الشيخ خليل صادق (راجع نوفل، ص ١٨٨ ـ ١٨٩؛ كحالة، ج ٤ ص ١٢٠).

١ ـ منح البر على حزب البر.

٢ ـ مناداة الخليل في مناجاة الجليل.

٣ ـ منحة الخليل في مدحة الجليل.

٤ ـ رسائل في علم الأنساب.

٥ ـ ديوان شعر.

٧ ـ ثمة عالمان من الأزهر (أي ممن درسوا في الأزهر) لم يتح لنا الوقت الكافي لدرس آثارهما، لذلك نكتفي بذكرهما هنا آملين أن نوفق إلى إيفائهما حقهما في المستقبل:

١ ـ عبد الرحمن القباني الأزهري (راجع كحالة، ج ٥ ص ١٦٥؛ فهرست الخديوية ١/٧ ص ٣٠٨).

له: الكافية في علم العروض والقافية فرغ من تاليفها سنة ١٢٦٢/١٨٤٦.

٢ ـ الشيخ أحمد عمر المحمصاني (راجع كحالة، ج ٢ ص ٣٤ ـ ٣٥؛ دي طرازي، خزائن الكتب في الخافقين ج ١ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢؛ سركيس، عمود ١٧٠٢).

له: مختصر جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله (مطبوع سنة ١٣٢٠).

٨ ـ مجالات العمل لهؤلاء العلماء:

ليس من اليسير، في عرض مقتضب وأولي مثل الذي نقدمه الآن، أن نفصل الأعمال التي أتيح لكل من هؤلاء أن يقوم به. لذلك رأينا من المناسب أن نقتصر على فئة قليلة، وقليلة جداً، من أولئك العلماء، لنوضح الأدوار التي قام بها كل منهم، ولتكون هذه النماذج سبلاً للتحدث عن بقية الأدوار والأعمال عندما يحين الوقت لذلك.

١ ـ الشيخ يوسف الأسير

١٢٣٠ ـ ١٣٠٧

١٨١٥ ـ ١٨٨٩

ولد الشيخ يوسف الأسير في صيدا سنة ١٢٣٠ (١٨١٥) (دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، الأول، ص ١٣٥؛ جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ج ٢ (ط ٣) القاهرة، ١٩٢٢، ص ١٦٤). وتلقى علومه الإبتدائية في صيدا وكان الشيخ أحمد الشرمبالي واحداً من مدرّسيه. ثم انتقل إلى المدرسة المرادية في دمشق حيث قضى سنة هناك. وبعد مدة سافر إلى القاهرة وانتظم في سلك تلامذة الجامع الأزهر. وكان شيخه يومها الشيخ حسن العطار. وكان من شيوخه هناك الشيخ حسن القوسيني والشيخ محمد الدمنهوري والشيخ محمد الطندتاوي والشيخ محمد الشبيني (زيدان، تراجم، ص ١٦٤) والشيخ إبراهيم الباجوري (المقتطف، جزء ١٥، ص ١٣٢). وبعد سبع سنين قضاها الشيخ يوسف في الأزهر حيث تلقّى العلوم النقلية والعقلية بأصولها وفروعها، عاد إلى صيدا. لكنه لم يطل الإقامة بها فانتقل إلى طرابلس حيث قضى ثلاث سنوات كان فيها محط أنظار أهل العلم والمعرفة. وكان ممن أخذ العلم عنه هناك يوحنا الحاج الذي أصبح البطريرك الماروني، ويوحنا الحبيب مؤسس جمعية المرسلين المارونية (دي طرازي، ص ١٣٧).

كانت بيروت قد أخذت وقتها تزخر بالمدارس والمطابع، وكانت فيها نهضة علمية كبيرة، فاختار الشيخ يوسف الإقامة فيها. ومن هنا تفتحت مواهبه وتنوعت أعماله. فمن الناحية الرسمية تولى رئاسة كتابة المحكمة الشرعية في بيروت، ثم تولى الفتوى في مدينة عكا وعُيّن مدعياً عمومياً في جبل لبنان على عهد متصرفه داود باشا (زيدان، ص ١٦٤؛ دي طرازي، ص ١٣٧).

انتقل بعد ذلك إلى عاصمة الخلافة حيث تولى رئاسة التصحيح في دائرة نظارة المعارف، وتعين أستاذاً للغة العربية في دار المعلمين الكبرى (دار الفنون ن.ز.) (زيدان، ١٦٤ ـ ١٦٥، دي طرازي، ١٣٧)، كما كان يكتب في الجوائب لصاحبها أحمد فارس الشدياق (دي طرازي، ١٣٧). ويبدو أن فئة من

كبار رجال السياسة في استانبول كانوا بين من أفادوا من علمه، يذكر دي طرازي منهم الصدر الأعظم رشدي باشا شرواني وجودت باشا وزير المعارف ووصفي أفندي رئيس كتاب شورى الدولة وذهني أفندي رئيس مجلس المعارف والمسيو بوره سفير فرنسا (دي طرازي، ١٣٧)، وإن كنا لا نعرف تماماً ما نوع الفائدة التي حصلوا عليها منه.

واشتد برد الآستانة عليه فعاد إلى بيروت. وفي بيروت درّس في المدرسة الوطنية التي كان بطرس البستاني قد أنشأها وكان من عمدتها، وفي مدرسة الحكمة التي أسسها المطران يوسف الدبس والكلية الأميركانية (كذا في طرازي) ومدرسة الثلاثة أقمار للروم الأرثوذكس (دي طرازي، ١٣٧). ولعل من أهم الأعمال التي قام بها هو الإسهام في ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية.

وقد وضع الشيخ يوسف الأسير كتاباً في الفقه سماه «شرح رائض الفرائض». وشرح كتاب «أطواق الذهب» للزمخشري. وقد ألف رواية تمثيلية سماها «سيف النصر» ووهب ريعها لمشترى أدوات لجريدة ثمرات الفنون عند أول نشأتها (دي طرازي، ١٣٧). وقد حرر الشيخ يوسف في «ثمرات الفنون» لصاحبها عبد القادر القباني، وتولى رئاسة تحريرها، وجريدة «لبنان» الرسمية، كما تولى رئاسة تحرير «لسان الحال» مدة من الزمان (دي طرازي، ١٣٨).

ويروي دي طرازي أن ممن تلقى عنه العلم في أواخر حياته غريغوريوس الرابع بطريرك الكرسي الأنطاكي للروم الأرثوذكس، والدكتور مارتن هارتمان أستاذ العربية في برلين (دي طرازي، ١٣٨).

وقد نظم الشيخ يوسف الأسير ترانيم كثيرة لا يزال بعضها يحتفظ به ويرنّم إلى الآن في الكنائس الإنجيلية. ومن الترانيم النفيسة ترنيمة تتضمن «الوصايا العشر» وهي:

غيري إله لا يكنْ / لا تسجدنّ للصنم
لا تأخذ اسمي باطلاً / ولا تَهِنه بالقسم
والسبتَ فاحفظ واصنعن / لوالديك المكرمة
والقتلَ فاحذر والخنى / في عمل أو كلمة
لا تختلسْ شيئاً ولا / تكذبْ وقل قول التقى
ولا تكنْ مشتهياً / ما للقريب مطلقا
وكلَّ هذي جمعت / وصية الفادي الحبيب
أحبِبْ بجهد ربّنا / وأحبِبْ كنفسك القريب

توفي الشيخ يوسف سنة ١٣٠٧/١٨٨٩ في بيروت. وقد خلّف آثاراً علمية، غير الكتابين المذكورين، في المجلة وفيها القوانين الشرعية والأحكام العدلية، وله ديوان، لكنه يحتوي البعض من شعره فقط (سركيس، معجم المطبوعات، عمود ٤٤٩ - ٤٥٠).

٢ - الشيخ حسين الجسر

١٢٦١ - ١٣٢٧

١٨٤٥ - ١٩٠٩

بعد أن تلقى الشيخ حسين علومه الإبتدائية في طرابلس على الشيخين عبد القادر وعبد الرزاق الرافعي والشيخ عرابي (نوفل، ص ١٦٨) انتقل إلى مصر ودخل الأزهر سنة ١٢٧٩. وكان من أساتذته هناك الشيخ المرصفي المشهور (رشيد رضا، المنار م ٢١ (١٩١٩) ص ١٦٠)، وعاد إلى طرابلس سنة ١٢٨٤، وكان يحب العودة إلى الأزهر، لكن وفاة عمه اضطرته إلى صرف النظر عن ذلك، فأقام في طرابلس وعُنِي بالتعليم والتأليف (نوفل، ١٦٨). وقد تخرج عليه جماعة من أهل العلم منهم الشيخ اسماعيل

الحافظ والشيخ عبد القادر المغربي والسيد رشيد رضا.

وقد قال عنه السيد رشيد رضا: «وقد امتاز بين علماء الدين بالنظر في العلوم والفنون التي يسمونها العصرية، وبقراءة الجرائد السياسية والمجلات العلمية. فكان لذلك يرغب في جعل طلاب العلوم الدينية جامعين بينها وبين الإلمام بتلك العلوم والفنون. فسعى لحمل بعض الأغنياء على إنشاء مدرسة دينية نظامية تعلّم فيها بعض الرياضيات والطبيعيات على الطريقة الأوروبية واللغتان التركية والفرنسية. فأنشئت المدرسة الوطنية، وكان هو مديرها. وقد دخل كاتب هذه السطور [رشيد رضا] في القسم الداخلي منها سنة ١٢٩٩ أو ١٣٠٠ فكان ذلك أول العهد بطلبه للعلم بعد أن تعلّم القراءة والخط في مكتب الصبيان بالقلمون، وطالع بعض كتب الأدب والتاريخ والتصوف منفرداً. ولكن لم يطل عمر المدرسة. فإن الحكومة التركية لم تقبل جعلها من المدارس الدينية التي يعفى طلابها من الخدمة العسكرية. وأصر مديرها الشيخ رحمه الله تعالى على إقفالها إن لم تعترف بها فأقفلت» (المنار، م ٢١ (١٩١٩)، ص ٢١).

وقد طلب للتدريس في المدرسة السلطانية ببيروت ففعل ذلك لمدة قصيرة. وفي قطعة إخبارية عن المدرسة السلطانية ببيروت لشاهين مكاريوس (نشرت في المقتطف م ٨ (١٨٨٤) ص ٣٠٣) أن الشيخ حسين الجسر كان يومها رئيساً للمدرسة السلطانية.

وعاد الشيخ حسين إلى طرابلس حيث عاد إلى العمل في التعليم. فكان يعلّم العلوم الدينية في المدرسة الرجبية وفي داره. وقد واظب السيد رشيد رضا على حضور تلك الدروس حتى تخرّج بها وأخذ الإجازة بالتدريس والتعليم منه سنة ١٣١٥ (رشيد رضا، المنار، م ٢١ (١٩١٩) ص ١٦١).

وكان الشيخ حسين الجسر يحرر في جريدة «طرابلس الشام». ويروي نوفل أن مقالاته جمعت تحت عنوان «رياض طرابلس الشام» فبلغت عشرة مجلدات «وهي مقالات في مختلف المواضيع وكلها بليغة العبارة غزيرة المادة طلية الأبحاث» (نوفل، ١٦٩). ولم نعثر على هذه المجموعة.

ومما يدل على وعي سياسي اقتصادي للأحوال التي كانت سائدة في أواخر القرن الماضي، المقال الذي كتبه في جريدة «طرابلس الشام» بتاريخ ١٥ أيار (مايو) سنة ١٨٩٣ وقد طالب فيه بإنشاء خط حديدي من الشاطىء الآسيوي على البوسفور حتى ينتهي بدمشق، ومثله خط حديدي من البصرة ماراً ببغداد وينتهي بدمشق. وكذلك بوجوب إنشاء خط حديدي يربط دمشق بمكة بالديار اليمنية. وقد بيّن الفوائد السياسية والعمرانية من مثل هذا العمل. كما أنه حذر من مدّ يد الآجانب إلى العمل في مثل هذه المشروعات (نوفل، ١٧٠ - ١٧١). وهذا قبل عمل الألمان على إنشاء خط استانبول بغداد، وقبل تفكير عبد الحميد ورجال حاشيته في إنشاء الخط الحديدي الحجازي. وهذا يدل على أن الشيخ حسين الجسر كان يعايش مشكلات المنطقة وقضاياها لا عاطفياً فحسب، بل عملياً وعلمياً أيضاً.

ترك الشيخ حسين الجسر نحو خمسة عشر مؤلفاً، أشهرها «الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقية الشريعة المحمدية» وهي عرض علمي واضح لعقائد الإسلام وأركان عباداته وأهم المعاملات الإجتماعية مع الأحكام والأدلة. وقد كافأه السلطان عبد الحميد بنسبة الرسالة إليه برتبة علمية ووسام وطلبه لأن يكون بين شيوخ قصره يلدز، فأقام في استانبول بضعة أشهر ثم طلب الإذن بالعودة لأن مناخ الآستانة لم يوافقه فأذِن له (رشيد رضا، المكان نفسه، ص ١٦١).

ومن آثاره المطبوعة (نزهة الفكر في ترجمة محمد الجسر» (والده). وإشارات الطاعة (راجع سركيس، معجم المطبوعات، عمود ٦٩٨؛

جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٢٥١.

٣ ـ الشيخ أحمد عباس الأزهري

١٢٧٠ ـ ١٣٤٥

١٨٥٣ ـ ١٩٢٧

الشيخ أحمد عباس الأزهري من ألمع الشخصيات العلمية التربوية في بيروت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. والرجل بعد أن تلقى تعليمه الإبتدائي في مدينته بيروت، ذهب إلى الأزهر، وعاد بلقب الأزهري إلى أسمه الأصلي أحمد عباس. (بهذه المناسبة فإن الشارع الصغير في بيروت الذي يخلّد اسم هذا العالم العامل المربي الكبير يحمل اسم «شارع الشيخ عباس» فقط).

واسم الشيخ أحمد مرتبط بالنسبة إلى التعليم بمؤسستين قامتا في بيروت في النصف الثاني من القرن الماضي وهما «المدرسة السلطانية» و«الكلية العلمية الإسلامية» ولذلك فلا بد لنا من التعرض إلى هاتين المؤسستين.

ثمة روايتان تتعلقان بالمدرسة السلطانية. فعبد الباسط فتح الله روى،» في مقال كتبه عن الأستاذ الإمام محمد عبده في بيروت، ونشر في المنار، وأعاد رشيد رضا نشره في تاريخ الأستاذ الإمام الجزء الأول (القاهرة، ١٩٣١) ص ٣٩٣ ـ ٣٩٨) أن جمعية المقاصد الخيرية أنشأت مدارس للذكور والإناث في كل حي من أحياء المدينة (أي بيروت) «ثم سمت بهما الهمة بدافع الحاجة إلى إنشاء مدرسة عالية داخلية فافتتحت «المدرسة السلطانية»، (فتح الله، المكان المذكور، ص ٣٩٣) وبعد أن يصف الروح التي أدخلها الشيخ محمد عبده لما قَبِلَ أن يدرس فيها، ينتهي إلى القول: «غير أن إرادة الله الإنتقامية في هذه الأمة لم تشأ أن ينعقد لعمله [الشيخ محمد عبده] الثمرة المرجوة، إذ أن ازدهار المدرسة وفلاحها أشعل نار الحسد في قلوب جماعة من رجال العسكرية، على مديرها، الذي صار له بفضل الأستاذ وحكمة تدبيره من النبالة ولسان الصدق في الناس، ما لم يرضه أولئك الأوغاد، فسعوا به فبدلوه بآخر» (فتح الله، المكان المذكور ص ٣٩٦)، وفي هامش تلك الصفحة ذكر عبد الباسط فتح الله أن مدير المدرسة كان يومها الشيخ أحمد عباس. وكان هذا في السنة الرابعة للمدرسة أي سنة ١٣٠٤هـ.

الرواية الثانية عن المدرسة هي التي أوردها شاهين مكاريوس في نبذة عن المدرسة السلطانية في بيروت نشرها في المقتطف المجلد الثامن (١٨٨٤) ص ٣٠٣. جاء فيها ما يلي عن إنشاء المدرسة:

«أنشئت المدرسة السلطانية في بيروت تحت ظل الحضرة الشاهانية المعظمة وأبهة والي ولاية سورية المفخم بهمة شعبة مجلس المعارف في بيروت». ومن هنا يبدو أن إنشاء المدرسة السلطانية كان عملاً حكومياً رسمياً، إلا إذا كان الكاتب أراد أن يعطي للسلطات أكثر مما تستحق.

صحيح أن الدولة العثمانية أخذت، في أواخر القرن الماضي، بإنشاء المدارس الرسمية المنتظمة، وكان يتوج هذا النظام مدرسة سلطانية في مراكز الولايات، وأن هذه المدرسة السلطانية كانت على غرار مدارس الليسيه الفرنسية. لكن هذه قضية تحتاج إلى مزيد من البحث. هل كانت سلطانية المقاصد نفسها السطانية الرسمية؟ هل تحولت الواحدة إلى الأخرى؟ وما إلى ذلك من القضايا، مثل زمن قيام السلطانية: الواحدة أم الإثنتان.

أما المؤسسة التعليمية الثانية المرتبط اسمها بالشيخ أحمد عباس الأزهري، فهي الكلية العلمية الإسلامية. والإرتباط هنا أقوى وأمتن.

ففي سنة ١٨٩٥ افتتح الشيخ أحمد عباس الأزهري مدرسته الخاصة التي سماها العثمانية (والتي أصبحت فيما بعد تسمى الكلية العلمية الإسلامية) والتي عمرت زهاء

عشرين سنة. وقد «اتسعت دائرتها وجمعت داخل محيطها أقسام التعليم الثلاثة الإبتدائي والإستعدادي والعلمي ـ عدا روضة الأطفال. وبهذه صارت كلية وأخرجت للأمة من الشباب الناهض الذي انطلق يؤدي ما وجب عليه لأمته من خدمة المدنية في فروع العلم التي حصلها في الكلية الإسلامية» (عبد الباسط فتح الله، المنار مجلد ٢٨ (١٩٢٧) ص ٣٩٣).

على أن الشيخ أحمد لم يكن يعنى بالتعليم فحسب، بل كان شديد العناية بالقضايا العامة وضرورة الإصلاح الإجتماعي. فمن «الأماني الإصلاحية التي كانت تشغل قلب الرئيس [الشيخ أحمد عباس] التوفيق بين مقتضيات العلوم الحديثة ومقررات العلوم الدينية. كان يزعجه ما يرى من تباين في الرأي بين بعض تلامذة المدارس العصرية وبعض طلبة العلوم الدينية، لجهل كل من الفئتين بعلم الفئة الأخرى. وخاف على الجهود المبذولة في سبيل نهضة الأمة أن يحيط بها هذا الخلاف أو يحبطها إلى عكس المقصود منها فهمّ بتلافي الأمر فوسّع قدر ما أمكن دروس العلوم الدينية من فقه وتوحيد، وأضاف إليها درساً في علم الأصول، ثم حاول إنشاء دائرة خاصة بمريدي الإختصاص في العلوم الدينية شرط أن لا يقبل فيها إلا من اضطلع بالعلوم العصرية». (المكان نفسه ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤).

(يمكن الرجوع إلى المظان التالية للإستزادة عن حياة الشيخ أحمد عباس الأزهري: الزركلي، الأعلام، ج ١ ص ١٣٩؛ ألبرت ريحاني، الموسوعة العربية، ص ٤٣؛ المنار المجلد ٢٨ (١٩٢٧) ص ٣٨٦ ـ ٣٩٥؛ مجلة الكشاف، المجلد الأول ص ٢٥٠ وص ٢٩٠ ـ ٢٩٨؛ عيسى اسكندر معلوف، مجلة الآثار مجلد ٤ ص ٥٢٨ ـ ٥٢٩؛ كحالة، معجم المؤلفين ج ١ ص ٢٥٩).

شهد لبنان، مع بقية أقطار العربية، نهضة هامة في القرن الماضي. وهؤلاء العلماء الذين تحدثنا عنهم هذا الحديث المقتضب، هم الذين مع غيرهم من العلماء، ممن قامت النهضة على أكتافهم.

فلا أقل من أن نتذكر لننتفع بالأمثولة الطيبة ولنحيي جهدهم وتضحيتهم وثمار أعمالهم.

□ □ □

الطب في طرابلس

• الطب في طرابلس قبل الجامعة الأميركية كان موقوفاً على بعض الأطباء الذين أتقنوا علم الأبدان على تذكرة داود الأنطاكي وقانون ابن سينا ويرثون المهنة أباً عن جد ومن أشهر الأطباء في ذلك الحين الحاج درويش في الأسكلة والحكيم لطفي في البلدة. كانت الأدوية عبارة عن الحشائش كالسنمكة والتمر الهندي والسيماروبا وحين جاءت الكينا صاروا يصفونها للحميات ويطلقون عليها اسم «الشلفاطة».

أما الصيادلة فكانوا العطارين وفي أكثر الأوقات كان الأطباء هم يركبون الدواء، وحين جاء مصطفى الميقاتي المعروف بمصطفى أفندي الحكيم يحمل دبلوماً من القصر العيني في القاهرة أوكل لابنته أمر تركيب الدواء الذي كان يصفه على «الروشتا».

وأطباء الأسنان كانوا الحلاقين وكان لدى كل منهم «كلابة» لقلع الأضراب ولم يكن للأسنان الاصطناعية «الوجبة» من وجود.